الفصل الرابع عشر

المـــوت
Death

يرتبط حاضر الإنسان بماضيه، كما يرتبط بمستقبله، يهدده العدم، يدرك تماماً - أياً كانت ثقافته - أن نهايته محتومة ولا بد أن يموت، ومن ثم فإن كل الشعوب تواجهها تلك الحقيقة البيولوجية وما تثيره من تساؤلات ومشكلات، كيفية الاستجابة للموت، تفسيره، إجراءات الحداد، هل الموت نهاية الوجود؟ وماذا يحدث بعد الموت؟ هنا يبرز دور الدين الذي يقدم للإنسان في العادة نماذج من المفاهيم والتفسيرات التي ترتبط بدورها بنماذج للتفاعل مع الموت وأحداثه[1]. وتختلف الشعوب البدائية في تفسيرها للموت، وإن كانت جميعها لا تخرج عن التفسيرات التالية:

1- قد يكون الموت نتيجة لفعل الأرواح الشريرة أو السحرة من ذوي النوايا الخبيثة، والذين قد يستخدمون وسائلهم في القضاء على الإنسان، كما لدى قبائل الأزاندي الذين يعتقدون أن السحر الأسود كفيل بتحقيق الموت.

2- قد يكون الموت جزاءً عادلاً بالنسبة لأولئك الذين قتلوا أو أساؤوا إلى الآخرين أو إلى الأسلاف.

---

[1] إن استخدام البدائيين لكلمة الموت ليس دقيقاً، ولعل المثال الذي قدمه لنا ريفرز *W.H.R.Rivers* في فصل بعنوان: «المفهوم البدائي للموت في قبائل ملانيزيا» يوضح ذلك. إن كلمة الموت *Mate* يقصدون بها نفس المعنى الذي نقصده نحن حين نستخدم كلمة *Death* بالإنجليزية، إلا أنهم يستخدمونها أيضاً للإشارة إلى المريض المصاب بمرض خطير وقد أشرف على الموت، كما يستخدمونها بنفس الطريقة بالنسبة لكبار السن... إنهم لا ينتظرون المريض أو المسن الذي تجاوز التسعين عاماً مثلاً حتى يموت ولكنهم يعتبرونه في عداد الموتى. انظر:
Rivers, W. H. R.: Psychology and Ethnology, Kegan Paul 1962, P. 41.

3- قد يحدث كمرحلة حتمية يمر بها الإنسان كما في حالة المرض أو العجز أو الشيخوخة. وأياً كان الأمر فإن التفسيرات تشير إلى ارتباط الموت بأفعال القوى الخارقة للطبيعة. وكما تفيد المادة الأثنوغرافية أن سكان جبال «الأنقسنا» *Ingassana* شرقي السودان ينظرون إلى تلك الحقيقة البيولوجية كما لو كانت نوعاً من الانتقال المؤقت، وأن الإله «تل جو» أي الإله وحده هو الذي يقبض الأرواح بواسطة أحد مساعديه من الشياطين «نقند». ولا يختلف سكان «كارلنجا» *Karlenga* في جبال «تلشي» *Tullishi* عن ذلك، إذ يعتقدون أن الإله «موسلا» والذي يعزون إليه الخير والإنتاج الوفير يمكن أن يكون مصدراً للشر ومسؤولاً عن ضعف المحصول وهلاك الأبقار وعقمها وموت الإنسان ومرضه، وذلك في حالة عدم رضائه وسخطه، كما يعتقدون أن الإله «موسلا» هذا قد يقضي على الأبقار والأغنام والدجاج ويسلبها الحياة لأنه في حاجة إليها، وعلى الرغم من تلك القدرة فإن لهم تفسيرات ساذجة في إعادة الحياة فهو لا يستطيع أن يعيد الحياة للبقرة لأنها تؤكل وتصبح عظاماً، ولهم نظرة خاصة في فلسفة الموت والخلق والإنجاب، إذ يقولون إن موسلا يقتل البشر بالتدريج، يقضي على الكبار أو بعضهم، ثم يسمح للآخرين بالإنجاب دون غيرهم، ثم يقضي على جماعة أخرى ليظهر نسل جديد وهكذا، فإذا سألتهم عن تفسير لذلك، أجابوا بأنه مضطر لذلك حتى يجد الأحياء كفايتهم من الطعام والشراب.

وكذلك الحال لدى مواطنيهم من سكان جبال كورنجو جنوبي كردفان، إذ يرون أن الموت «جندا» مرده إلى إرادة الإله «موسلا»، وإن كانوا يرون أن الإله لا يفكر في الشر على هذا النحو، وأن السبب المباشر يتمثل في السحر، إذ إن الساحر يمكنه أن يقتل أي شخص يريد وقد يدفعون أحياناً بمبررات العدالة والجزاء، إذ يرون أن اليمين الحانثة قد تؤدي إلى الموت.

ولا يختلف جيرانهم من الدنكا، إذ يردون الموت إلى إرادة الإله الخالق أو الكائن الأسمى *Nhialic* والذي لديه القدرة المطلقة على الخلق والتدمير[1].

---

[1] د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ج1، الهيئة المصرية العامة 1980، ص 278.

أما «تيف» *Tiv* نيجيريا فيردون الموت إلى القوة التي يسمونها *Tsav* والتي خلقتها الآلهة للتعامل مع البشر، وهي المسؤولة عن العديد من الظواهر كالاضطرابات التي تتمثل في سوء الحظ والمشاجرات والمرض والموت[1].

وتتشابه الشعوب جميعها في ضرورة الإعلان عن الميت، ففي كارلنجا لا يلبث أن يشاع الخبر في بقية الجبال المحيطة، حيث تطلق الأعيرة النارية لإخبار أولئك الذين يسكنون أسفل السفح أو أعلاه، وقد يتم الإعلان بالبكاء والنحيب، وقد يرسلون آخرين إلى القرى المجاورة مثل (تمبلي - سرفاية - رأس الفيل...) خاصة أولئك الذين ينتمون إلى الجماعة العشائرية، ومن ثم يُحضر المعزون ثوراً من خارج المنطقة أو من المناطق المحيطة والذين يحرصون بدورهم على إطلاق الأعيرة النارية عند وصولهم إشارة إلى قدومهم للعزاء، أما جيرانهم في كورنجو فإنهم يحرصون على دق الطبول ويصيحون ويبكون وقد يرقصون ويغنون في اتجاهات مختلفة كنوع من إشاعة الخبر والإعلان عن الحداد. ويتوافد أفراد الجماعة القرابية والجوار حاملين أسلحتهم سواء من البنادق والرماح والحراب ويحيطون بمسكن المتوفى يبكون وينتحبون، يتطاولون ويتوعدون «الموت الغادر» كما يحدث في جبال الأنقسنا، حيث يصفون الموت بالغدر والخيانة والجبن، لأنه يأتي خفية للقضاء على قريبهم هذا... وقد يسبّون الإله «تل» على فعلته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الشعوب أياً كانت هويتها الثقافية تحرص على ممارسة بعض الشعائر والطقوس قبل دفن الميت وتوديعه إلى مثواه الأخير. ففي غرب الكاميرون يجردون الميت من ثيابه ويتركونه بعد تنظيفه بالماء حتى يتحلل جسده وتنزع جمجمته[2]، إذ يزعمون أنها مقر الروح، وعادة ما يقومون بدفنها على عمق قليل، وتحتفظ الأسرة بها لاستشارتها في المحن والشدائد وعند

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان، مرجع سابق، ص 28.

[2] في جزر التروبرياند (درسها مالينوفسكي) يستخرج الجثمان مرة ثانية من القبر للحصول على العظام، ثم تدفن الجثة مرة أخرى، ويحتفظون لأنفسهم بالعظام كنوع من الورع والتقوى والاحترام الزائد للمتوفى، الزوجة تأخذ الجمجمة لتستخدمها كوعاء، أما العظم الفكي فيوضع حول رقبة الزوجة كنوع من الحلي، أما الأقارب من ناحية الزوجة وأصدقاء المتوفى فيأخذون الأظافر والأسنان والشعر وتحمل كنوع من الزينة، أما أقارب المتوفى من ناحية الأم فإن استخدام عظام الموتى محرم عليهم تماماً. (انظر: علي محمود إسلام الفار - الأنثروبولوجيا الاجتماعية، 1978).

المرض، ويقدمون لها الطعام والشراب ويحرص البعض على إقامة بيوت في الغابات اعتقاداً منهم أن الأرواح تأوي إليها. أما قبائل الدنكا في السودان فإنهم يفزعون من الموت، على الرغم من إدراكهم العميق للصلة الوثيقة بين عالم الأحياء والأموات، كما رأينا حين عالجنا عبادة الأسلاف، فإذا مات أحدهم فإن أقاربه يتجنبونه ويحرص الغرباء على عدم الاختلاط بذويه فلا يسمح لهم بتناول الطعام والشراب في منازلهم أو الالتقاء بهم في المناسبات الاجتماعية، وإذا مات الدنكاوي مزقت النساء أرديتها الجلدية وتركته جافاً فلا يدهن بالزيت من حين لآخر كما كان الحال من ذي قبل، ولا تتزين بالودع أو الخرز، يهلن التراب على رؤوسهن ويتركن أجسامهن بيضاء من تأثير الرماد مهملن شعورهن... ويحرص أقارب المتوفى على القيام بالشعائر التقليدية التي يسمونها *Cvol* بعد وفاة الذكر بثلاثة أيام وأربعة للأنثى، تنحر الكباش وبعض الدجاج للآلهة في منتصف الليل، ولا يأكل الأقارب من هذه اللحوم وربما يأكلها آخرون من غير الأقارب، وتستهدف العشيرة مقاومة المرض واستبعاده عن الأحياء. وعندما يموت أحدهم يقولون: لقد جاءت به الآلهة، وها هي قد أخذته، إنهم يصلّون للآلهة والأرواح الأخرى كما لو كان الميت مستمراً في الوجود في مكان آخر، إن روحه تهيم حول قبره أو مسكنه ويبتهلون إليها (إلى الروح) أن تساعدهم وتحميهم من الأمراض والمصائب وأن تعينهم على الشؤون الدينية[1]. إن هذه الممارسات متشابهة عند معظم الشعوب البدائية والتي تستهدف إرضاء الميت والرغبة القوية في حمايته والاستفادة من قواه الكامنة وقدراته التي لا حدّ لها، وفي الوقت نفسه الخوف والفزع من سخطه وعدوانيته، وربما هذا ما يدفع بعض القبائل (البانتو) في جنوب إفريقيا إلى أكل لحم الميت، ثم حرق عظامه، ومن ثم يستفيدون من قواه الحيوية بدمج لحمه في أجسادهم وفي الوقت نفسه يضمنون استحالة عدوانه[*].

أما قبائل الأنقسنا فإنهم يمارسون طقوساً أكثر تعقيداً لتحقيق هذه

---

[1] د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ص 243.

[*] لدى وشيي كورنجو في جبال كردفان يقومون بدهن الجسم باللبن الرائب ويخلطونه في العادة بالملح ثم يدلك الجسم ثم يحمل إلى القبر، ويبررون ذلك بأنهم يحاولون الحفاظ على الجثمان فترة أطول حتى لا يتفسخ، وقد يدهن بالزيت على النحو الذي رأيناه في جبال الأنقسنا.

الأهداف، إذ تقوم بعض النسوة بإزالة الشعر من الرأس وغسل الجسد والتدليك بالزيت، ثم يضعون في قدميه نعالاً وفي رأسه سكيناً ويلف جسده بقطعة من الدمور (نوع من الحصير)، يثبت بالحبال، ثم يحضرون ثوراً ويربط بالقرب من الجثمان، هنا يناديه أكبر الأبناء أو أحد إخوته الذكور (يعتقدون أن الميت يسمع الحديث): «لقد أحضرنا لك هذا الثور، راجين إياه ألا يعود مرة أخرى، فهاهم قد أعطوه ما يستحق من الأبقار»، هنا يعطي الابن إشارة لأحد الأشخاص تفيد إطلاق سراح الحيوان لتبدأ عملية المطاردة بقصد ذبحه، ويحاول كل من ينال من هذا الثور ويحظى بجزء منه، وعادة ما يترك رأس الثور وجزء من المؤخرة لأهل الميت، فإذا تمت عملية الذبح تحمل النسوة من كبار السن الجثمان إلى مقره الأخير، وعادة ما يخصص مكان معين لكل منطقة على حدة. وفي هذه الأثناء يقوم بعض الأشداء من الرجال بحفر القبر وتجهيزه على شكل حفرة عميقة تنتهي بمستطيل إلى جانب الحفرة الرئيسية والتي يصل طولها إلى نحو مترين ويدفن الميت على جانبه ويده اليمنى أسفل الرأس، أما المرأة فيضعون يدها اليسرى أسفل الرأس والذي يتجه عادة إلى الجبل المقدس. ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض القبائل تستخرج العظام من القبر وتحتفظ بها كنوع من الحلي (جزر الأندمان).

وتبدي الشعوب البدائية تفاوتاً واضحاً في كيفية التعامل مع مقتنيات الميت ومخلفاته، بل إن بعضها كقبائل البوشمن يدفنون موتاهم ومعهم جميع ممتلكاتهم، ثم يضعون بعض الأحجار على القبر خشية أن تعتدي بعض الحيوانات على الجثة وقد يتركون المكان ولا يعودون إليه إلا بعد فترة طويلة. وما زال الوثنيون يحرصون على أن يرتدي الميت حذاءه، ويمسك بحربته، كما يضعون معه كيس التنباك، وقرن الثور الذي كان يستخدمه في رقصاته والخرز الملون الذي اجتاز به شعائر التكريس، بل أكثر من ذلك أنهم يثبتون ذنب بقرته في قدمه اليسرى، وعادة ما يختارون ذنب بقرة من الأبقار الأمهات التي جلبت له معظم هذه الثروة، حينئذٍ يهال عليه التراب. أما فوق القبر فإنهم يثبتون «شعبة» ويضعون فوقها بعض الأشياء التقليدية التي كان يستخدمها في حياته كالحراب، والسكاكين، والعصي، والفأس والقربة.

أما المرأة فتعلق في شعبة قبرها بعض الآنية التي كانت تستخدمها، وكذلك جرت العادة على كسر الأواني أياً كانت على القبر ولا تترك سليمة، وليس لديهم تفسير لذلك سوى زعمهم بأن الميت قد مات، ومن ثم فلا بد وأن تموت معه.

وبعد نحو ثلاثين يوماً من دفن الجثة يقضي العرف القبلي بسكب المريسة، حيث تحضر كميات كبيرة يحملونها إلى القبر وتدفق عليه وتحطم آنيتها، اعتقاداً منهم بأن عالم الموتى الذي أصبح يأوي إليه الميت لن يقبله أو يأنس إليه إلا بعد إحضار المريسة، ومن ثم فإنهم يشعرون بالارتياح لأنه سوف ينضم إلى إخوانه من الموتى، ويكون هذا بمثابة الوداع الأخير، إذ إنهم يعتقدون بأنه يظل حياً حتى تقام شعائر سكب المريسة هذه[1]. هنا وقبل تركهم للمقبرة يلتفون حوله قائلين: (كينيا أكانا اليتا ندي تارك موسلي - ادرنجو كالبوا نسوكنو) أي: لقد تركناك ووداعاً في عناية موسلي وقدمنا لك المريسة فامش إلى عالم الموتى.

والجدير بالذكر أن الكارلنجيين يفزعون من الموت شأنهم في ذلك شأن جيرانهم من الأنقسنا والذين ينظرون إلى الميت على أنه امتداد لعالم الأحياء، إلا أنهم يخافونه إلى حد بعيد. فإذا مات أكثر من شخص في منطقة ما في فترة زمنية وجيزة فإن سكان المنطقة يتركونها على الفور اعتقاداً منهم أنها مليئة بالأرواح والشياطين، وكذلك الحال لدى سكان كارلنجا الذين لا يفكرون على الإطلاق في زيارة الموتى منذ وداعهم الأخير، وفي أحوال قليلة قد يصحب أحد كبار السن أحد أبناء المتوفى إذا أراد هذا الأخير أن يتعرف على قبر أبيه، أما في ما عدا ذلك فإنهم لا يسجلون أي نوع من الزيارات سواء في المناسبات أو الأعياد أو غيرها، بل إنهم يترددون كثيراً عند المرور بالقرب من المقابر، وفي حالة تكرار الموت في منطقة ما فإنهم يقررون ترك المنطقة بأسرها[2].

وتختلف الشعوب الوثنية من حيث مفهومها فيما يتعلق بالبعث، أو أن ثمة حياة أخرى بعد الموت، وهل هناك ثواب أو عقاب، فالوثنيون في كورنجو جنوبي كردفان

---

[1] سكان كورنجو لا يعرفون سكب المريسة هذه، إلا أنهم يحرصون على قذف بعض الحبوب وخاصة الذرة على الجثمان قبل الدفن، فضلاً عن دهن الجثة بالزيت ونثر المياه عليه قبل الدفن مباشرة.

[2] د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ص 243.

يقرون أن روح الإنسان تظل بالقرب منهم وأنها لا تعرف الفناء، بل إنها قد تقوم من حين لآخر ببعض التصرفات التي تسيء إلى الآخرين من الأحياء[1]. وأياً كان الأمر فإن سكان كورنجو من الوثنيين لا يعتقدون في البعث أو أن ثمة ثواب وعقاب، ولا يختلف الأمر بالنسبة لسكان كارلنجا في جبال تلشي ولا يعني حرصهم على دفن مقتنياتهم أن لديهم فكرة البعث أو الحياة الأخرى، وإنما مرد ذلك إلى الخوف والتشاؤم من استخدام ممتلكات الميت ومقتنياته، ومن ثم فإنهم يتخلصون منها بدفنها في قبره، وكذلك الحال لدى وثنيي جبال الأنقسنا في شرق السودان الذين ينظرون إلى الموت على أنه انتقال إلى عالم آخر هو في حقيقة الأمر - كما يعتقدون - امتداد لعالمهم ولكنهم لا يرون أن هناك بعث أو ثواب أو عقاب[2].

وعلى الرغم من أن الموت شيء غامض بالنسبة إليهم إلا أنهم يدركونه كما لو كان عملية انتقال من العالم المادي المحسوس إلى عالم الأرواح، وأن ثمة استمرارية في التواجد معاً، هنا نجد أنفسنا أمام نوع من التصورات المدركة، والتي تتميز بالثنائية الواضحة، والتي تربط بين عالم الموتى وعالم الأحياء، وعلى الرغم من أنهما منفصلان إلا أنهما متصلان في الوقت نفسه، وعلى الرغم من موت الإنسان إلا أن روحه ما تزال تشعر وتحس، تمتلك الرغبات والمشاعر، تنتقل من مكان إلى مكان، ولعل هذا هو الذي دفع ليفي بريل إلى القول بأن عقلية البدائي هي «قبل منطقية» ***prelogical*** لأنها متناقضة أو تجمع بين المتناقضات. إن الناس يتصرفون كما لو كان موتاهم أحياء وموتى في الوقت نفسه، ومن ثم فإن هناك دوماً أنواعاً من الروابط الغامضة التي تربطهم بموتاهم، إن تقديم البيرة واللبن والماء والمريسة (نوع من الخمور الشعبية معروف في بعض مناطق السودان) للموتى إنما هو نوع من الرمزية على حدّ تعبير ***John Mbiti***، تشير إلى المشاركة والزمالة والتذكر. إن

---

[1] في بعض الأحلام التنبؤية يرى أحدهم أن شخصاً ما (قد مات منذ فترة) سوف يسبب له بعض المتاعب كأن يؤذيه أو يعتدي على ممتلكاته أو يتسبب في وفاته، وغالباً ما يرتبط هذا بعداوات سابقة بينهما، أو أن ثمة عهد يجب الوفاء به، هنا يذهب إلى الكجور ويقص عليه الحلم، فيأمر الأخير بأن يذبح خنزيراً على قبر الميت كنوع من التكريم أو على سبيل الترضية، إذ إن ثمة اعتقاد أن الميت يمكن أن يحمل ظل الرجل الحي معه إلى القبر ويسبب له الكثير من المتاعب وقد يودي بحياته، ومن ثم فإن هذا القربان المقدم إلى الميت كفيل بأن يجعل الميت يطلق سراح «ظل» الرجل الآخر.

[2] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 164- 166.

الفرد بعد موته الفيزيولوجي وتحلل جسده لا يختفي بسرعة، يذكره الأقارب والأصدقاء الذين عرفوه في حياته، إنهم ينادونه بالاسم، وليس من الضروري أن يشيروا إليه، يذكرون شخصيته وتصرفاته وأفعاله، أحداث حياته، كلماته المأثورة، عهوده ...إلخ ويحاولون الوفاء بها[1].

إن تقديم القرابين للأسلاف بعد الرؤى والأحلام أو في أعياد الموتى إنما يستهدف استعادة العلاقة الودية بين الأحياء وأسلافهم من الموتى وتجنب ما قد يحدثونه من أضرار وآلام لأحفادهم من الأحياء.

obeikandl.com

[1] John Mbiti: African Religions and Philosophy, Heinemann, London 1971, pp. 25-27.